جمال مصطفى*

حدود أوشفيتس
كيف مَفْهَم المجتمع الإسرائيلي الحرب على الفلسطينيين؟

مقدمة

يَفهم هذا المقال حرب الإبادة التي تشنها إسرائيل على الفلسطينيين، خصوصًا في قطاع غزة، من خلال التنبيش على جذورها في السرديّة الإسرائيليّة حول هجوم ٧ أكتوبر. برز في هذه السرديّة مصطلحان متلازمان: الأول هو "اليهودي الضحيّة" والثاني هو "اليهودي المقاتل". تجسّد المصطلح الأول في الإسرائيليين الذين سقطوا في هجوم ٧ أكتوبر بعد أن تُركوا في أرض المعركة وحيدين فقُتلوا على يد "الشرّ" الذي يتربص باليهودي باعتباره يهوديًا، ويجسّد المصطلح الثاني الإسرائيليين "المدنيين" الذين خرجوا بسلاحهم الفردي "دفاعًا عن البيت". يعود المقال إلى تاريخ استخدام المصطلحين، ويعرض العلاقة بينهما بوصفها علاقة تَشَكُّل المنظور الحربي العبري، منذ المراحل المبكّرة للمشروع الصهيوني مرورًا بحرب عام ١٩٦٧، وصولًا إلى يومنا هذا. ويرى المقال، بعرض تاريخ المصطلحين على واقع الحرب، وما تظهره استطلاعات الرأي والصحافة والكتب العبرية، ملحقةً بالوقائع التي تجري في ميدان المعارك وخارجها، أن العلاقة بين المصطلحين قد دخلت مرحلةً جديدة إثر "طوفان الأقصى"، انعكست في الشكل الجديد للمجتمع العبري، الذي يكتسيه نمط عسكرةٍ تجري وتندفع بقوّة التشابك بين المفهومين داخل المخيال الجمعي للإسرائيليين، ما يجعل من المنظور الحربي للتعامل مع الآخر بوصفه وِحدة واحدة تعبّر عن "شرّ مطلق" يجب القضاء عليه، احتمالًا وحيدًا للسلوك العبري.

بتعبير مختلف، رغم ظهور أزمات وانقسامات متعددة بين الأحزاب السياسية و/أو القوى الاجتماعية في إسرائيل على مدار أشهر الحرب الراهنة، وكذلك ظهور قضايا خلافية جديدة إلى جانب استحضار قضايا

* طالب ماجستير فلسفة في جامعة تل أبيب.

قديمة مثل التباين بين المستوى السياسي والعسكري، أو ما نتج عن تجنيد الجماعة المتدينة في إسرائيل، أو المظاهرات المعارضة لتأجيل نتنياهو إتمام صفقة مع "حماس" تضمن خروج المواطنين الإسرائيليين من غزة أحياء، فإن هناك أساسًا مشتركًا يجمع جميع الإسرائيليين. يشكّل هذا الإجماع الصهيوني حول الحرب، سواء من حيث منطلقاتها أو أهدافها أو عدالتها، الخلفية الموحدة لهذه الانقسامات، ويعمل كسقف موحد للبيت العبري، مما يجمع أبناءه على اعتبار هذه الحرب الأكثر أخلاقية. لم تبرز في إسرائيل أي قوة سياسية أو اجتماعية متوازنة تشكك في أخلاقية الحرب أو الحقّ في شنها، أو في ضرورة تحقيق أهدافها. لم يحدث أي تزحزح أو ارتجاج جوهري في المبادئ التي صاغت الحرب منذ لحظتها الأولى: إقامة حرب إبادية على قطاع غزة وتحويله إلى أطلال. بهذا، يتضح أنه رغم تعدد أسباب الانقسام، فيظل هناك إجماع عميق يوحد المجتمع الإسرائيلي في موقفه تجاه هذه الحرب؛ والبحث في جدلية "اليهودي الضحية" و"اليهودي المقاتل" قد توفر مدخلًا لفهم هذا الاجماع. من هذا المنظور، يقدّم المقال قراءة تحليليّة للأرضيّة التي يقف عليها الإجماع الصهيوني حول الحرب، ويسعى من خلال الإشارة إلى المرجعيات المختلفة التي تشكّل المنظور الحربي الراهن، النظر في المفاهيم والطروحات والوقائع التي تصنعها الحرب الدائرة منذ نهاية العام الفائت.

١. "الجندي الغائب"... والمجتمع العسكري

في أيام الحرب الأولى، ظهر الجندي الإسرائيلي في الإعلام المتلفز والمكتوب بصورة مهزوزة، سمَتها الأساسيّة التأخّر في أداء الواجب، وقد ظهر مصطلح "هافكرا" (بالعبرية: "التَخلّي") من أجل وصف حالة مستوطني غلاف غزّة، الذين "تركوا" أمام هجوم مقاتلي "النخبة" ليتحوّلوا إلى ضحايا؛ عبّر عن هذه الرؤية سكّان كيبوتس "بئيري" في حديثهم إلى وسائل الإعلام إثر مشاهدة نتائج تحقيق الجيش في معارك الكيبوتس. إن مجمل الأفكار الناشئة لدى سكّان الكيبوتس هو أن تخلي الجيش عنهم لم يتمثّل في غياب الجندي الإسرائيلي فحسب، بل ترسّخ أكثر مع حضور الجيش في الكيبوتس ٩ ساعات بعد بدء المعارك، حيث أُخفضت مكانة المواطن اليهودي، الضحيّة، إلى أدنى درجات سلّم الأولويات لدى الجيش عبر إيلاء الأخير الأولوية لإنقاذ المصابين من عناصر الأمن أو المقاتلين من "وحدات التأهّب" من جهة، والانسحاب المبكر لبعض الفرق من الكيبوتس أو عدم دخوله من جهة أخرى، وأكثر من ذلك ظهر "التخلي" على نحو مباشر وضيّق، في إطلاق سلاح المشاة قذائف مدفعية على بيوت سكنية سيطر عليها جنود "القسام" وبداخلها أسرى إسرائيليون، كما الحادثة المشهورة في "كيبوتس بيئيري" التي اتخذ القرار بشأنها الضابط "باراك حيرم". إن التدرّج في سلّم الأولويات، ملحقًا بصورة الجندي الغائب، هو أكثر ما يذكره "سكّان الغلاف" عن اليوم الأول للحرب.[١]

يمكن قراءة هذه الصورة بوصفها تجسيدًا لـ (شرخ) وقع بين المواطن اليهودي والمؤسسة العسكرية، لكن، يمكن أيضًا قراءة هذه الصورة بوصفها دافعًا من بين دوافع أخرى، مثل التحريض الإعلامي، الجذور التاريخية للعنف في الأيديولوجيا الصهيونية، أو ما يعبّر عنه يوميًا وزراء في الحكومة الإسرائيلية، نحو حالة عسكرة جارية في المجتمع الإسرائيلي منذ اندلاع الحرب الراهنة. والحقيقة، تبدو الأخيرة ذات قدرات تفسيرية أكبر لصيغة المجتمع الجاري تشكيلها في إسرائيل، حيث ولّدت الحرب نِسب تسلح غير مسبوقة في أوساط المواطنين اليهود، سواءً عبر طلب المواطن للسلاح، أو عبر توزيع وزارة الأمن القومي الآلاف من قطع السلاح على نحو عشوائي على مواطنين يهود. على سبيل المثال، في أول ٩٠ يومًا من الحرب بلغ معدّل طلبات السلاح المرخص ١٨٠٠ طلب يوميًا، وحتى نهاية العام ٢٠٢٣، قدّم ٢٩٩،٧٠٤ مواطن يهودي طلبًا لرخصة سلاح خاص، بارتفاع ١٨٠٠٪ عن العام الماضي ونحو ١,٧ أضعاف مجمل رخص السلاح في إسرائيل، المقدّرة بـِ ١٧٢ ألف رخصة قبل الحرب. وقد حصل حتى ٢٠٢٤/٠٧/٣٠ نحو ١٥٠ ألف مواطن على الموافقة لطلبه، فضلًا عن ١٤ ألف رخصة سلاح وزّعت لمواطنين لا يستوفون "المعايير" المستجدة والتي أعلن عنها بعد بداية الحرب بأسبوعين. في هذا السياق، أورد موقع "شاكوف" تقريرًا يفيد بأن المعايير المستجدّة إثر الحرب، توسّع نطاق المواطنين الذين بالإمكان حصولهم على رخص سلاح بـِ ٣٠٠ ألف مواطن.[٢] وكتعبير عن التسهيلات التي حررتها وزارة الأمن القومي وتصاعد الطلب على رخص السلاح من قِبل

ضمن أحد المعايير المستحدثة لتسهيل الحصول على "رخصة سلاح"، ظهر مصطلح "المستعمرات ذات الاستحقاق (يشوف زكاي)"، وهي المستعمرات التي تقع في مناطق ذات "خطر أمني مرتفع"، مثل المناطق الحدودية أو "المدن المختلطة"، أو باختصار المناطق التي يعيش (أو يعمل) فيها اليهودي على مقربة من الفلسطيني، وهي ذات المناطق التي شهدت تأسيس وحدات تأهب جديدة.

المواطنين اليهود، عنونت صحيفة "ذي ماركر" مقالًا بـ "٤ ساعات ونصف من وقتكم وبضعة مئات من الشواكل: هكذا يمكنك الحصول على رخصة سلاح في إسرائيل".[٣]

بالإضافة لهذا، أُسست، بحسب وزارة الدفاع، نحو ٩٠٠ وحدة تأهّب جديدة تحتوي أكثر من ١٠٥٠٠ مقاتل، وتمويلها بـ ٦٣٣ مليون شيكل من ميزانية "وزارة الأمن القومي"؛ وهي وحدات تتبع للشرطة أو للجيش، تعنى بالحفاظ على الجهوزية القتالية للمواطن اليهودي في إسرائيل، وتمرينه على استخدام السلاح الخاص والحَربي، بعد إنهائه للخدمة العسكرية حتى جيل ٦٤ سنة.[٤]

ضمن أحد المعايير المستحدثة لتسهيل الحصول على "رخصة سلاح"، ظهر مصطلح "المستعمرات ذات الاستحقاق (يشوف زكاي)"، وهي المستعمرات التي تقع في مناطق ذات "خطر أمني مرتفع"، مثل المناطق الحدودية أو "المدن المختلطة"، أو باختصار المناطق التي يعيش (أو يعمل) فيها اليهودي على مقربة من الفلسطيني، وهي ذات المناطق التي شهدت تأسيس وحدات تأهب جديدة.

على الضفة الأخرى من حالة العسكرة، يشكل الاستثمار الدعائي لظهور "الأبطال الذين لا يرتدون زيًا عسكريًا"، في إشارة إلى المستعمرين الذين خرجوا للاشتباك مع قوّات "القَسام" في اليوم الأول للحرب مقابل صورة "الجندي الغائب"، دافعًا مهمًا نحو حالة العسكرة الجارية في المجتمع الإسرائيلي. يذكر الصحافي "إيلان كابير" في كتابه "فرقة غزّة احتلّت"، والذي تقدم صفحاته سردًا لـ"بطولة وحدات التأهّب" في مقابل فقدان دعم الجيش لسكان الغلاف، كلامًا شبيهًا إلى حدّ بعيد بالأفكار الناشئة لدى سكان كيبوتس بئيري أعلاه. وفي حين يدّعي سكان الكيبوتس أنه خلال عرض نتائج التحقيق "حدث أمران: الأول هو اعتراف الجيش بتخلّيه عنا. الثاني هو أننا وقفنا بكل قوتنا، قلّة ضد الكثرة. ومنذ ذلك اليوم، أعدنا بناء وحدات الاحتياط العسكرية [وحدات التأهب] على أفضل وجه، ونأمل ألّا نحتاج إليها مستقبلًا"؛[٥] بالأسلوب ذاته، يكتب الصحافي في كتابه: "ليس صحيح دائمًا أن القوة الصغيرة تقدر على مواجهة عاصفة من مئات الإرهابيين المسلحين، إنهم [وحدات التأهب] أول من دفع ثمن التخلي والإهمال. بعضهم قاتل حتى قُتل. بعض وحدات التأهّب قتل جميعُ أعضائها [...] إنهم أبطالنا، كما يقال في مستعمرات الغلاف".[٦] والحقيقة أن هذا التوصيف يمتد على مختلف فصول الكتاب؛ في سرده لمعارك كيبوتس "نير عوز" يصفها الكاتب "حربًا غير متكافئة"، بين "مقاتل وحيد" من "صفوف التأهّب" و١٥ "مقاتل نخبة".[٧] وكذلك الأمر في معارك "نيريم" التي واجه بها "ثلاثة مقاتلين عشرات مقاتلي النخبة،"[٨] وغيرها.

ثمّة إنتاج غزير في الدعاية الإسرائيلية للحرب لـ "بطولة" هذا النوع من المقاتلين الذي لا يرتدي زيًا عسكريًا. وتعتمد هذه الدعاية في مجملها على المقابلات الشفويّة أو الشهادات المكتوبة، سواءً من مقاتلي "وحدات التأهب" أو من سكّان شاهدوا القتال في الكيبوتس. يمثّل هذا النمط من المقاتلين، "نموذجًا" للمواطن الإسرائيلي الحديث: إنه المواطن الذي يواظب على التمرّن لاستخدام السلاح، ويملك سلاحًا في بيته،

دمار في جباليا يوم ٦ أوكتوبر ٢٠٢٤. (شينخوا)

ولديه "الشجاعة" للخروج إلى المعركة "دفاعًا عن البيت"، أي عن الدولة. ولم تتردد الكاتبة "هداسه بن آري" في تقديمها كتابَ "حرب الأبطال: قصص البطولة لليافعين"، في الحديث عن هذا النموذج ليس للمواطن العادي، بل تحديدًا للأطفال. والكتاب في مجمله يروي قصصًا متخيّلة عن "البطولة الإسرائيلية"، التي قام بها ليس الطواقم الطبية، والشرطة، والجنود وغيرهم من "مجمل سكان الغلاف" فحسب، بل الأطفال الذين ساهموا في الحرب أيضًا، من أجل زرع قيم البطولة في نفوس الأطفال، بحسب قولها.

بهذا الأسلوب، يمكن القول إلى حدّ ما، أن إسرائيل تعمل على استدعاء ملامح وسمات أساسية من شخصيّة "الطلائعي-حالوتس" بوصفه المقاتل الذي تكتسي شخصيته أمورٌ مثل حماية الدولة والدفاع عنها وحمل السلاح، كأسلوب حياتي يتجانس وحضوره في أرض إسرائيل، بل ويطلبه أيضًا؛ الآن، فإن "النموذج" العيني المشتق من تصاعد أسلوب عسكرة المجتمع أعلاه، هو كل يهودي، مجند، مزارع، عامل، موظف، تاجر، أجير أو غيرها، يسمو على التقسيمات الاجتماعية والسياسية، ويساهم في حماية الدولة عبر الحفاظ على جهوزيته القتالية.

إلّا أن التحوّل الأساسي في هذا السياق على ضوء "التخلي والإهمال والتَرك" أعلاه، هو حرص المواطن على الدفاع عن نفسه ومحيطه الاجتماعي، أو ضمان أمنه الشخصي أكثر من أي شيء آخر؛ أي أن استعادة النفسية القتالية والجهوزية الحربية لا تشتق من مبادئ مؤدلجة كما جرى في المراحل المبكرة من المشروع الصهيوني، بل بناءً على حاجة عمليّة مفادها أن "حرب الوجود" قد استهلّت في معارك وقعت داخل حدود الدولة، وداخل كيبوتسات غلاف غزة. وتظهر استطلاعات الرأي التي قاست "الروح القوميّة"، المركّبة من شعور المواطن اليهودي بالأمن الشخصي وما يفكر به تجاه أمن الدولة، ورسوخ النظام الديموقراطي فيها، بالإضافة لعوامل أخرى مثل العلاقات اليهوديّة-يهودية، أنه ثمّة انعدام للثبات حول هذه النسب، وأنه رغم التدفق الأفقي للسلاح، ما زال المواطن اليهودي

نسب التفاؤل بأمن الدولة/ الاطمئنان على الأمن الشخصي، على امتداد أشهر الحرب لدى المواطن اليهودي في إسرائيل

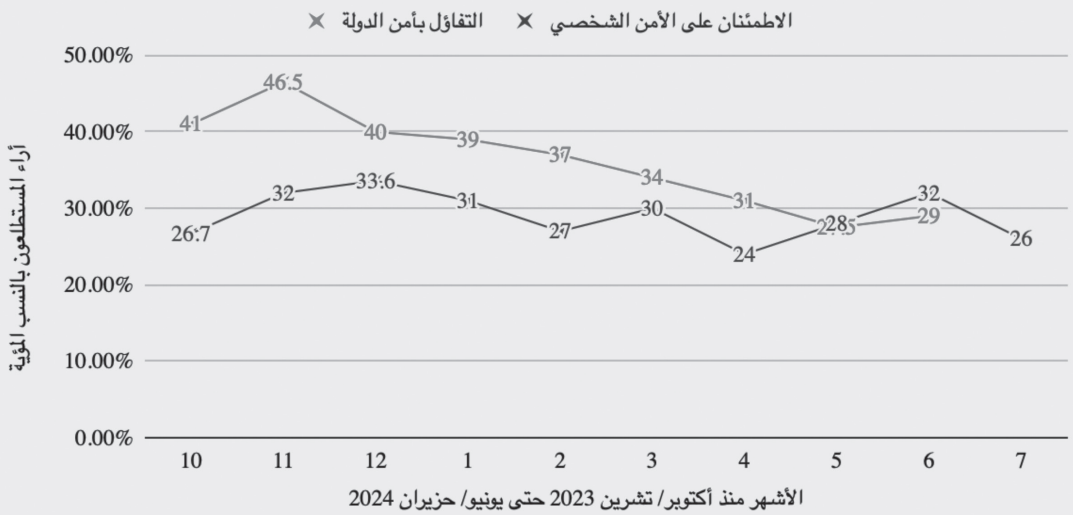

لا يتمتع بمشاعر الطمأنينة لأمنه الشخصي ومحيطه الاجتماعي، فضلًا عن أمن الدولة. على سبيل المثال، انظر الشكل أدناه:[٩]

إن ما يهمنا في سياق المقال ليس مجرد التفاوت بين النسب، أو استمراريّة انحدارها تناسبًا مع طول أمد الحرب، بل انعدام اليقين حول الآليات التي يمكن أن تفضي إلى الشعور بالأمان الشخصي أو الاطمئنان على مستقبل الدولة. ولا يعني هذا ‹تفكك الدولة›، أو ما شابه، بل إننا نحاول قياس "الشعور العام" لدى المستعمرين. بهذا المعنى، يمكن القول على نحو قاطع، إن انتشار السلاح في المجتمع الإسرائيلي وتأسيس وحدات التأهّب، لم يساهما على نحو حاسم ببلوغ شعور الأمن الشخصي لدى المواطن اليهودي. في استطلاع حول تأثير هذين المعطيين، عبّر ٥٠,٥٪ من المستطلعين اليهود عن شعورهم بالاطمئنان حيال تسهيل إجراءات الحصول على رخصة سلاح، في مقابل ارتفاع النسبة إلى ٧٤٪ حال السؤال حول دفع إقامة "وحدة تأهّب" بالشعور بالأمن الشخصي.[١٠] في الحقيقة، تتناقض أجوبة المستطلعين مع بعضها البعض، حال الانتقال من السؤال الشخصي والحالة العينيّة، إلى قياس "صورة بانوراميّة" أو الحالة النفسيّة العامة كما يظهر في الرسم أعلاه.

بهذا الأسلوب، يمكننا إيراد ما يلي:

أ. "صورة الجندي الغائب" لم تقص ثقة المواطن اليهودي بالجندي الإسرائيلي، أو بالمؤسسة العسكرية. وتتراوح ثقة الجمهور العبري في الجيش، المعبّر عنها في استطلاعات الرأي منذ أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٣ حتى حزيران ٢٠٢٤، بين ٨٩,٥-٧٨٪ وهي الأعلى بين باقي مؤسسات الدولة. أي إن صورة الغياب الخاصة بالجندي قد خلقت حضورًا كثيفًا للأسلوب العسكريتاري في حياة المواطنين، ممثلًا في ارتفاع كبير بأعداد الملتحقين بـ "وحدات التأهّب" بالإضافة لانتشار السلاح على نطاق واسع في المجتمع.

ب. حالة العسكرة الجارية في المجتمع الإسرائيلي على ضوء "عمليّة طوفان الأقصى"، تداخلت وتشابكت مع شعور عام بالقلق على الأمن الشخصي وعدم الاطمئنان على المستقبل الأمني للدولة، وهو ما بُلور في الإعلام وفي الخطاب الرسمي إلى العالم الخارجي وإلى داخل المجتمع الإسرائيلي، ضمن "صورة الضحيّة" التي يتقمصها المجتمع الإسرائيلي ويحتكرها مقابل ‹العدو الإرهابي›، الذي يرغب بقتل كل اليهود لمجرد كونهم يهودًا.

بهذا المعنى، يمكن القول على نحو قاطع، إن انتشار السلاح في المجتمع الإسرائيلي وتأسيس وحدات التأهّب، لم يساهما على نحو حاسم ببلوغ شعور الأمن الشخصي لدى المواطن اليهودي.

ت. إن الحرب الراهنة بوصفها "حرب وجود" أو "حربًا على الوجود"، يعيشها ويشارك فيها المجتمع الإسرائيلي بمختلف تقسيماته الاجتماعية والسياسية.

ث. إن اللافت أكثر في الصورة المشكّلة أعلاه، هو استدعاء رواية "حرب القلة ضد الكثرة" إلى داخل معارك "غلاف غزّة"، وهي الدعاية التي تلقّفها المجتمع الإسرائيلي واستثمر بها من أجل ترسيخ احتكار شخصيّة الضحيّة، وبلورة خطاب يمركز المشاعر العامة للجمهور الإسرائيلي حول ضحايا المحرقة الجديدة، ويدفع إلى العالم رواية تلزم التضامن مع «أحفاد المحرقة النازية».

بهذا الأسلوب، شكلت هاتان الصيغتان المتناقضتان إلى حدّ بعيد، استدعاء الشخصيّة المحاربة، الشجاعة والبطولية، القلّة المحاربة، مقابل انخفاض حادّ بالاطمئنان على الأمن الشخصي، واحتكار شخصية الضحية، النواة الأساسية للسردية الصهيونية حول الحرب. ويرى هشام نفاع أنه "في المراحل المتقدمة لتشكّل سرديّة الحدث تتصادم دوافع وتصورات من اتجاهين: تكريس صورة الضحية المطلقة لفعل فاعل اعتدى بوحشية، والحفاظ في الوقت نفسه على ثيمة البطولة والقوّة والتفّوق العسكري"،[11] ملحِقًا أسلوب السرد هذا إلى عوامل أخرى، أهمّها الاستثمار في الخوف لدى المجتمع الإسرائيلي، مدفوعًا بروايات خيالية يسهل دحضها، من أجل إخفاء حسّ النقد ضد السلطة، وتحييد باقي المشاعر الأخرى التي قد تنشأ لدى المجتمع الإسرائيلي، ما يدفع به إلى التكتّل والانغلاق على نفسه. وفي حين يبقي الكاتب على هذه العناصر ضمن السردية الإسرائيلية، فإنه يرى أن الرواية الإسرائيلية ما زالت قيد التبلور وهي تخضع للتجاذبات والصراعات بين المؤسسات والتيارات السياسية الإسرائيلية.

إذن، فإن الثيمة الأساسية للسردية العبرية حول اليوم الأول للحرب، هي التقابل بين مفهومين متناقضين: "المقاتل" و"الضحية". وهي ملحقة بـ "شعور عام" يكتسيه الخوف على الأمن الشخصي أمام العدو، ويقابله أيضًا اندفاع نحو التسلح الأفقي.

٢. المقاتل والضحية، وصياغة "نحن" جديدة: تاريخ مختصر

تشكّل العلاقة مع مفهوم الضحيّة، جانبًا حاسمًا في بناء السرديّة الصهيونيّة للحضور الاستعماري على أرض فلسطين، ومدخلًا من أجل مفهَمة المنظور الحربي تاريخيًا. وتبقى أحداث المحرقة النازية التي ارتكبت في أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، التجسيد الأكثر حضورًا في الذهنية اليهودية لمفهوم الضحية.

في المراحل المبكّرة من المشروع الصهيوني، وحتى العقد الأول لبناء الدولة، كان التنكّر لمحرقة اليهود في أوروبا حاضرًا على نحو عميق في قلب الهويّة الجماعية لمجتمع المستعمرين قيد البناء، ولم تظهر المحرقة إلّا كعيب يهودي يجب إقصاؤه عن السردية التأسيسيّة لحضور اليهود في "أرض-إسرائيل". في هذا التاريخ، من ناحية، تبلور الاعتقاد عند قادة المشروع الصهيوني أن حماية اليهود في أوروبا ليست مهمّة صهيونيّة، بل على العكس فإنها مفصولة تمامًا عن مهمّة بناء الدولة،

إذن، فإن الثيمة الأساسية للسردية العبرية حول اليوم الأول للحرب، هي التقابل بين مفهومين متناقضين: "المقاتل" و"الضحية". وهي ملحقة بـ "شعور عام" يكتسيه الخوف على الأمن الشخصي أمام العدو، ويقابله أيضًا اندفاع نحو التسلح الأفقي.

ولا تقدّم الأولى دورًا مفيدًا للأخيرة: "بالنسبة لقادة اليشوف العبري، ساد الاعتقاد أن إنقاذ يهود أوروبا لا يقع في سلم أولوياتهم. إن وظيفة الحركة الصهيونيّة، كما صرّح بن غوريون في أعلى مراحل تطوّر المحرقة، هو بناء أرض-إسرائيل".[١٢] ومن ناحية أخرى فإنها تتناقض مع "اليهودي النموذجي" الذي يجب استيراده من أوروبا. بالنسبة للحركة الصهيونيّة فإن ما يجب القيام به ليس تجميعًا اعتباطيًا ليهود الشتات، أو مجرّد أغلبية عددية يهوديّة على أرض فلسطين، بل بناء مجتمع قائم بذاته، جديد ومختلف جذريًا في قيمه وفي نوعيّة بنائه عن صيغة اليهودي في أرض المنفى.[١٣]

بهذا الأسلوب، فإن اليهودي النموذجي ليس اليهودي بموجب دينه، وتحديدًا ليس اليهودي الذي يهاجر إلى فلسطين هربًا من القتل على يد النازية، كما "مجموعة المهاجرين، غير الصهاينة، والمفتقرين للسمات الطلائعيّة"،[١٤] بل بناءً على قناعته بالمشروع الصهيوني وقدرته على الانخراط بالمؤسسات الصهيونيّة القائمة على مفهوم "العمل العبري"، الذي ينطوي على روحية العلاقة مع الأرض بواسطة الزراعة فيها واحتلالها وبناء المستعمرات، فضلًا عن أدلجته اشتراكيًا؛ وباختصار إنه اليهودي الطلائعي، الذي تقوم شخصيّته من بين عوامل أخرى على قتل الأغيار. لقد وقع نفي "الشتاتي" عمومًا، أي القائم على التعايش مع الآخر والذي لا يرتبط وجوده بتملّك الأرض، ونفي الضحايا على نحو محدد، في قلب القيم الصهيونيّة. من هذه الأرضيّة، وُصف يهود المحرقة أو يهود ألمانيا بأنهّم مقطوعو الجذور العبرية،[١٥] وباختصار، كان المنظور السائد مفاده أن "شعبًا يهرب لا يبني وطنًا"،[١٦] كما جاء على لسان إسحق غرينبوم، وتوافق هذا المنظور مع رؤية بن غوريون التي رأت باليهود المهاجرين من ألمانيا كيهود يأتون على عكس إرادتهم: "لقد وجدوا أنفسهم منذ البداية في صراع مع المبادئ المؤسسة للحياة على أرض-إسرائيل".[١٧]

لاحِقًا، وترسيخًا لمفهَمة الضحيّة على هذا النحو، عشيّة حرب ١٩٤٨، وقف مفهوم الضحيّة وجهًا لوجه أمام مفهوم المقاتل. ضمن التحضير الحربي لما يسمى "حرب الاستقلال"، عملت الحركة الصهيونيّة على ‹استيراد› مادّة بشرية مقاتلة وإرجاء صعود اليهود الذين لا يتمتّعون بالقدرات القتالية، لناحية البنية الجسمانية والجيل الشاب، إلى "أرض-إسرائيل".[١٨] لقد كانت أوامر بن غوريون واضحة ولا تخضع للتفسير، "علينا جلب يهود بين جيل ١٨-٣٥ أو كحدّ أقصى ٤٠، والذي يقدرون على حمل السلاح".[١٩] إن مصير اليهودي الضحيّة في هذا السياق غير مهم بالمطلق بالنسبة للحركة الصهيونيّة. ولقد استثمرت الحركة الصهيونيّة في هذا المنظور حتى بعد إعلان قيام دولة إسرائيل؛ إثر الهجرة التي استوطن بها يهود ضحايا في فلسطين، لم يتفكك حلم بن غوريون تمامًا في بناء "المجتمع العبري" إثر الخلط بين المواد البشرية "الضحيّة" و"العبري"، لتظهر الهويّة الجماعيّة اليهوديّة ليس من خلال "الذاكرة الجماعيّة"، بل من خلال "النسيان الجماعي" لتاريخ اليهود في المنفى. آثرت الحركة الصهيونيّة، من خلال مؤسسات الدولة الناشئة على "تربية" "الصاعدين الجدد" من نجاة المحرقة على قيم ومبادئ تدفع بنسيان ما تعرّضوا له في أوروبا. إن المهمة الأساسية لقيادة الحركة الصهيونية

بهذا الأسلوب، فقد احتجزت الحركة الصهيونيّة مفهوم الضحيّة خارج سرديّتها، وبالتالي أقصت "ضحايا المحرقة" -بوصفهم تجسيدًا لليهودي الضحيّة- عن "نحن اليهوديّة" الناشئة، من أجل ترسيخ مفهوم المقاتل العبري. في هذه المرحلة التاريخيّة وقع انفصال تام بين المفهومين.

كانت "صياغة جديدة لشخصيّة الناجين من المحرقة وزرع قيم جديدة في نفوسهم [...] في الكيبوتس حاولوا مساعدة أطفال المحرقة بالطريقة الوحيدة التي عرفوها؛ أن يجعلوهم ينسون ماضيهم".[٢٠]

بهذا الأسلوب، فقد احتجزت الحركة الصهيونيّة مفهوم الضحيّة خارج سرديّتها، وبالتالي أقصت "ضحايا المحرقة" -بوصفهم تجسيدًا لليهودي الضحيّة- عن "نحن اليهوديّة" الناشئة، من أجل ترسيخ مفهوم المقاتل العبري. في هذه المرحلة التاريخيّة وقع انفصال تام بين المفهومين. يظهر المؤرخ الإسرائيلي توم سيغف في كتابه "المليون السابع" التبدّلات التاريخية للمحرقة في الوعي الإسرائيلي الناشئ على "أرض-إسرائيل". ويمكن قراءة ثلاثة مراحل أساسيّة في الكتاب، تفصل بين التنكر للمحرقة، والالتقاء بها كحقيقة تاريخية ما دفع بالأيديولوجيا الصهيونية إلى استخدامها أداتيًا، أو "التزّين بها"، ضمن احتكار تمثيل اليهود في العالم، ولاحقًا شكّلت المحرقة "تاريخ العلمانيين" اليهود الذين لا يجدون غيرها تاريخًا لهم يدفعهم ويبرر في الوقت نفسه، حضورهم الاستعماري على أرض فلسطين، على عكس اليهود المتدينين الذين يمسكون بالرواية الدينيّة لتاريخ اليهودي، والحق والوعد الإلهي لهم، وغيرها من قيم يهوديّة ليس فقط كتاريخ لهم، بل كاستحقاق لاستيطان فلسطين؛ من منظور هؤلاء شكّلت المحرقة جزءًا من تاريخ معاداة اليهود في العالم، والذي يضرب في جذوره إلى آلاف السنين. في الواقع، فإن الفصول الأخيرة للكتاب تظهر أن اليهود يرون في حضورهم على "أرض إسرائيل" تأرًا لتاريخ الضحيّة، من خلال التسميات التي أطلقوها على تماثيل ولوحات وغيرها من أمور رمزيّة؛ تأرًا لتاريخ أوشفيتس وحياة الغيتو، أين كان النقاء اليهودي يمثّل ضعفًا على النقيض تمامًا من النقاء اليهودي في بناء دولة إسرائيل. بتعبير مختلف، يمكن القول بامتياز، إن الحركة الصهيونيّة كحركة تاريخيّة، أي تتطوّر في الممارسة والخطاب بموجب الظرف التاريخي، لم تمانع الحركةَ بين الحدود المتمايزة للمفهومين، واستخدامهما أداتيًا رغم التناقض بينهما. وفي الحقيقة، فقد أخضعت الحركة الصهيونيّة مفهوم الضحيّة للخطاب الحربي ومتطلّبات التحشيد الداخلي، وبناء السرديّة الصهيونيّة إلى العالم، أكثر من تعاملها (مبدئيًا) مع الضحايا اليهود.

بحسب المؤرخ الإسرائيلي، افتتحت الحركة الصهيونيّة تاريخًا ضمّن الضحايا في السرديّة الاستعماريّة عبر محاكمة أدولف آيخمان في القدس عام ١٩٦١. حيث كانت البطولة في اختطاف آيخمان وفي تجسيد إسرائيل، لنفسها ولليهود العالم، بوصفها من يحاكم المجرمين بحق الشعب اليهودي، بينما "وراء بطولة اللحظة، عميقًا أكثر من الرغبة العارمة لعدالة العقاب والانتقام، غُمرنا بالرعب والقلق والعار والذنب [...] في اللحظة التي كانت فيها "النحن اليهوديّة" تعيش قوّتها، كانت تلتقي أيضًا مع أعمق عناصر الضعف في تاريخ اليهود".[٢١] في هذا السياق، شكّل ظهور "اليهودي الضحيّة"، تطوّرًا كبيرًا في تركيب الشخصيّة اليهوديّة، إلى داخل مجتمع المستعمرين، وإلى العالم على حدٍ سواء. في الواقع، لم يول بن غوريون اهتمامًا لآيخمان الشخص، بل لكون المحاكمة تجري في إسرائيل، ما يتيح له إظهار دولة إسرائيل بوصفها من تحاكم

وفي الحقيقة، فقد أخضعت الحركة الصهيونيّة مفهوم الضحيّة للخطاب الحربي ومتطلّبات التحشيد الداخلي، وبناء السرديّة الصهيونيّة إلى العالم، أكثر من تعاملها «مبدئيًا» مع الضحايا اليهود.

وتدافع، تحمي وتشكل تغييرًا تاريخيًا في تاريخ اليهود، ضد «أولئك المجرمين». بتعبير آخر، جسّدت المحاكمة بالنسبة لبن غوريون الأرضية التي يمكن أن تقف عليها إسرائيل كمن يتحدّث باسم الشعب اليهودي في كل العالم، "وريثة ضحاياه"[٢٢] بتعبيره، ودون هذه الأرضيّة فإن المحاكمة لا تقع ضمن أي اهتمام صهيوني. هنا، ظهر النمط العبري لخطاب "معاداة الساميّة" في شكله الأكثر وضوحًا؛ إن من يقف إلى جنب إسرائيل يقف إلى جنب من يحمون الشعب اليهودي في كل العالم، بالتالي، ومن يعادي دولة إسرائيل فإنّه يعادي اليهود في كل العالم. لقد كانت محاكمة آيخمان أول توافق بين الضحية كتاريخ للشعب اليهودي، والمقاتل (البطل العبري) كراهن في الحاضر، لكن ليس من خلال اعتبار الأولى ماضيًا يجب تذكّره، بل كمحرّك في الحاضر يوجِب تجاوزه. أقصد، أن استحضار مفهوم الضحية يدفع بالعبري نحو السمو على ذاته، بيد أن هذا السمو والتجاوز ليس عمليّة إجرائيّة واحدة، بل إنه يبقى ملازمًا وإبقاء الضحية بوصفها خلفيّة المقاتل اليهودي ورمزيّة البطولة لديه.

بهذا الأسلوب، من جهة، تشكل الضحيّة رمزية الوحدة بين يهود العالم، حيث الأعداء يحلمون بقتل اليهود لكونهم يهودًا، ولأن العالم أجمع قد اشترك في "المحرقة" كما تحدّث بن غوريون لصحيفة "نيويورك تايمز" عشيّة المحاكمة، سواءً بمنع اليهود من الهجرة خارج ألمانيا أو بواسطة عدم التدخل المباشر أو بواسطة إتمام فعل القتل، فإن العالم أجمع هو نازي بالإمكان حتى يثبت عكس ذلك بدعمه المطلق لإسرائيل؛ يقول بن غوريون إن المحاكمة يجب أن تورّث للجيل الصغير أن اليهود ليسوا خرافًا يساقون إلى الذبح، بل إنهم قادرون على الرد بالحرب، تمامًا كما قام اليهود بـ "حرب الاستقلال".[٢٣] يفضي هذا إلى ملازمة عضوية للخطر الوجودي في البنية الشعوريّة لدى اليهود في إسرائيل، ما يستدعي الجهوزيّة الحربية كقدر ومصير محتوم. بأسلوب بن غوريون، لا تشكل الضحيّة إلّا مولّدًا لمنظور حربي تجاه أي آخر غير يهودي، إنه "غرس دروس المحرقة في نفوس الجيل الشاب".[٢٤] وفي مقابل هذا الهدف الداخلي، فإن جوهر خطاب المحرقة إلى الخارج كما صاغة بن غوريون، هو إعادة تفسير المحرقة إلى العالم: على دول العالم أن يفهموا أن المحرقة تجبرهم على دعم دولة إسرائيل، دولة اليهود الوحيدة في العالم، ليس لأنها غير قادرة على الدفاع عن نفسها، بل لكون هذا استحقاقًا تاريخيًا.

من هذا المبدأ، التوافق الثأري بين الضحية والمقاتل، استحضار الضحيّة كمحرّك لإظهار القوّة أو لممارستها أو لاختراعها، يشتق توم سيغف تدشين مشروع النووي الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧ بوصفها حربًا استباقية. ليتحوّل مفهوم الضحيّة بهذا المعنى إلى خلفيّة المقاتل اليهودي وليس نقيضه؛ الخلفيّة التي تدفع اليهودي إلى الخروج إلى الحرب. في الحقيقة، أزاح الاستخدام الصهيوني مفهومَ الضحيّة مكامن الضعف الكامنة فيها، وحوّلها في تركيب الهويّة، كمولّد جديد لمفهوم اليهودي العبري الذي يحمل السلاح ويقتل الأغيار، يصنع القوّة ويقدر على مواجهة الأعداء. إن استدخال مفهوم "اليهودي الضحيّة" إلى السرديّة الصهيونية يشكل دافعًا تاريخيًا نحو معاداة الآخر، وحتميّة وضرورة قتله، ما يستوجب مراكمة القوة من

لقد كانت محاكمة آيخمان أول توافق بين الضحية كتاريخ للشعب اليهودي، والمقاتل (البطل العبري) كراهن في الحاضر، لكن ليس من خلال اعتبار الأولى ماضيًا يجب تذكّره، بل كمحرّك في الحاضر يوجِب تجاوزه.

جهة، ومهاجمته أولًا من جهة أخرى. لقد كان الإنجاز العسكري، المبهر فعلًا، في حرب الأيام الستّة، بالنسبة إلى يهود العالم وإلى يهود إسرائيل، حسمًا تاريخيًا مع مفهوم الضحيّة، وبناء شخصيّة اليهودي بوصفه قادرًا على سحق "ورثة النازيين" (من منظورهم). إن مفهوم الحرب الاستباقية إسرائيليًا، من بين عوامل أخرى ترتبط بالعقيدة الأمنيّة الإسرائيلية والبنية العنيفة للمشروع الصهيوني، نشأ في ظل هذا المفهوم للمحرقة، أي منعًا لتحوّل اليهود إلى ضحايا من جديد. ولم يقتصر هذا المبدأ على خطاب اليسار، مع صعود اليمين إلى الحكم لم يتعامل مناحيم بيغن مع المفهوم بوصف محصورًا في قطاع محدد من اليهود، بل آثر على تعميمه على الكل اليهودي على غرار بن غورين. في هذا السياق تحوّل مفهوم الضحيّة إلى مسارٍ احتكاري، حيث لا ضحيّة إلّا اليهود من جهة، وإلى درع ضد أي نقد قد تواجهه إسرائيل، كما صرّح بيغن حول المذابح التي ارتكبها إسرائيل بحق الفلسطينيين في حرب لبنان ١٩٨٢: "العالم أجمع قد فقد منذ المحرقة، أي حق أخلاقي في محاسبة اليهود على ما يقومون به؛ لا يملك أحد في العالم أن يوجّه أخلاقيًا سلوك الشعب اليهودي"،[٢٥] من جهة أخرى.

يمكن قراءة استدعاء مفهوم الضحيّة على صعيدين، الأول هو أنه مع محاكمة آيخمان، افتتح في إسرائيل تاريخ المحرقة كأداة تفسّر كل شيء، وقد خلقت الأداة التفسيرية هذه، الاختراع الإسرائيلي المذهل بأن الشعب الفلسطيني وريث النازيين. في المقابل، يمكن قراءة تاريخ المفهوم ضمن الدوافع والغايات والظروف التاريخيّة التي ساهمت في تشابكه مع النفسيّة الحربية لدى المجتمع الإسرائيلي. إن الاستنتاج الأساسي لصعود مفهوم الضحيّة هو قدرة مستخدميه على تعميمه على جميع اليهود واستدخاله إلى نفسيّتهم الجماعية، وليس اختزاله على "يهود المحرقة"، وبالتالي ولادة القناعة لدى جميع أبناء المجتمع العبري أنهم جميعهم مهددون بالخطر الوجودي، ما يستدعي "حدود أوشفيتس" بوصفها حدود الدولة، كما وصف بيغن حدود عام ١٩٤٨ بعد الانتصار في حرب ١٩٦٧: إن الحدود السابقة على حرب الأيام الستة هي حدود أوشفيتس.[٢٦] وبالتالي فإن الذهاب إلى الحرب هو كسر لجدران أوشفيتس. الحرب، قتل الأغيار، هي الأداة الوحيدة، المسار الوحيد الذي يمكن خلاله فتح حدود المعتقل والتحرر منه، لكن ليس مرة واحدة وإلى الأبد، بل إنها مفهَمة لحرب لا-نهائية مفروضة على اليهود بوصفهم يهودًا، وطالما بقي آخر إرهابي على قيد الحياة يتمنى الشر ويتربص باليهود. بهذا المعنى، وربما سيهمنا هذا لاحقًا أكثر، فإن "فتح الحدود" بوصفها ‹التحرر› من تاريخ الضحية والمعتقل هي-هي احتلال أرض الآخر؛ فتح حدود المعتقل يتم عبر توسيع حدود الدولة.

تلقي هذه المفهمة بظلالها على ولادة قناعات أخرى، الأولى أن إسرائيل بوصفها دولة اليهود، تدافع عن نفسها وحدها، تمامًا كما وقف اليهود وحدهم أمام القوات النازية، ما يدفع بها لاستحضار كل قوّتها دائمًا من أجل درء الخطر الوجودي. والثانية، وربما هذا أكثر ما يهمّنا في سياق المقالة، هو أن قتل الأغيار هو الاحتمال الوحيد، حيث اعتبار الآخر وريث النازيين لا يشكل مجرّد دعاية للعالم حول ضرورة دعم إسرائيل، بل ترسيخ لقناعة الإسرائيليين أن قتل اليهود يشكّل

يمكن قراءة استدعاء مفهوم الضحيّة على صعيدين، الأول هو أنه مع محاكمة آيخمان، افتتح في إسرائيل تاريخ المحرقة كأداة تفسّر كل شيء، وقد خلقت الأداة التفسيرية هذه، الاختراع الإسرائيلي المذهل بأن الشعب الفلسطيني وريث النازيين.

سمة عضويّة في شخصيّة الأعداء، وبالتالي فإن اليهودي مضطر لقتلهم؛ يلحق هذا باعتبار قتل الأعداء في الحاضر هو انتقام وثأر لضحايا المحرقة، "روح القتال لدى الجنود والانتصار - استندت من بين عوامل أخرى لذاكرة المحرقة".[٢٧]

٣. طوفان الأقصى، والحقائق المستجدة

بالعودة إلى موضوع المقال، يضيء هذا التاريخ المختصر لغياب مفهوم الضحيّة وحضوره على حالة تأسيس مستجدة في الذهنيّة الصهيونية، تؤسس مفاهيم الحرب وتُطوّرها، وتصيغ النفسيّة الجماعية لليهود في إسرائيل. بهذا الأسلوب، يمكن إدراك دلالة أمر أساسي وقع أوّل مرة في تاريخ العلاقة بين الضحية وقتل الآخر. لم تكن الضحيّة ماضيًا، بل ظهرت في الحرب من وجهة نظر الإسرائيليين كراهن وحقيقة ملموسة. إن هذه الحقيقة مدفوعة بالموروث الحربي أعلاه، تموضع الضحيّة كأداة تعبويّة في نقطة قصوى تجعل ارتكاب المقتلة الجماعية ضد الشعب الفلسطيني، وليس أقل من ذلك، قدرًا حتميًا يمنع استمرار الضحيّة في الحاضر، وكحالة ثأريّة عامة. إن الوحدة الواحدة التي تصيغ اليهود كضحايا هي ذاتها التي تسقط على الآخر كعدو، وتمنع أي تمييز تجاهه، وتجعل الخوف من مصير الضحية مهيمنًا، ومحرّكًا مولدًا للنفسية الحربية بهيئة غير مقتصرة على الجيش، بل تتدفق إلى حالة مجتمعية معسكَرة. وتجعل أيضًا من يعترض أو يشكك في رواية الضحيّة في الراهن هو نفسه من ينكر تاريخها.

في المقابل، إن المعطى الجديد الأساسي في هذه الحرب، هو أنها أول حرب يشكل جزءٌ عضويٌ من قيادتها السياسية، فئات لا ترى في الحروب أداة حماية للمواطن أو دفاع عن الدولة أو تجنب لمصير الضحيّة إلخ... مما ذكر أعلاه، بقدر ما تمسك بها كأداة دنيوية لتنفيذ أهداف السماء: خلاص الشعب اليهودي وممارسة حقّه في تحرير أرض-إسرائيل من يد الأغيار، أو باختصار فإنها تفهم دولة إسرائيل بوصفها الحضور الخلاصي لليهود على أرضهم التاريخية. ويختصر وزير الماليّة بتسلئيل سموترتش، الذي يثابر على اقتباس مقاولات توراتيّة تحمل صيغة الأمر، حيث ينفّذ هو حق السماء في الأرض، منظور الصهيونيّة الدينيّة في الحرب: "امح أثر عماليق من تحت السماء". المسألة هنا لا تتعلق بقتل الآخر، بل بالقضاء على أثره أيضًا، ما يشي بحرب مستمرة مفروضة على اليهود بدأت منذ آلاف السنين وتنتهي في تحقيق النقاء المطلق للحضور اليهودي على "أرض-إسرائيل".

ليست المسألة هنا المطابقة بين اليمين واليسار في إسرائيل، بين نخب مختلفة وتتبنّى مواقف سياسية مختلفة وتمثّل قطاعات وطبقات اجتماعيّة مختلفة. بيد أن المنظور الحربي يقلّص الفجوات، ويكتّل المجتمع الإسرائيلي حول معاداة الآخر. تمكننا استطلاعات الرأي المجراة على امتداد أشهر الحرب، من مقاربة الالتقاء بين المنظورين الحربيين تجاه الآخر، حيث تظهر شمولية المنظور الحربي للمجتمع الإسرائيلي، وشعورهم المتنامي بأن ما يستعيد الأمن هو القوّة التي لا حدود لها. في استطلاعات الرأي يظهر تبنٍّ متصاعد لمواقف

". المسألة هنا لا تتعلق بقتل الآخر، بل بالقضاء على أثره أيضًا. ما يشي بحرب مستمرة مفروضة على اليهود بدأت منذ آلاف السنين وتنتهي في تحقيق النقاء المطلق للحضور اليهودي على "أرض-إسرائيل".

يمينية متطرفة (رغم تدنّي شعبيّة الأحزاب السياسية)، من جهة عدم الاكتراث بإعادة الإعمار، أو احتلال غزّة، أو قتل الفلسطينيين. ما نحاول قوله ههنا، أن هذه القناعة، رغم تطابقها وأيديولوجيا الأحزاب الحاكمة في إسرائيل، فإنها غير مشتقة منها بالضرورة، بل من حالة العسكرة الجارية في المجتمع والمتشابكة مع مفهوم الضحية في التاريخ الصهيوني. في استطلاع للآراء أجري بعد شهر من اندلاع الحرب، عبّر ٣٣٪ من المستطلعين عن رأيهم بأن «الرؤية السياسية، الأمثل هي احتلال غزة والضفة الغربية.[٢٨] ومع تدقيق النظر في الخلفية السياسية والاجتماعية للمستطلعين يظهر «الفارق الكبير» بين جماهير اليمين واليسار في إسرائيل. لكن، مع امتداد أمد الحرب، أي ارتفاع عدد «الضحايا» الإسرائيليين على الجبهتين الشمالية والجنوبية، وانخفاض الشعور بالأمن الشخصي والتفاؤل بمستقبل الدولة الأمني كما أشرنا سالفًا، ارتفعت القناعة هذه تحديدًا في أوساط المستطلعين من اليسار الصهيوني.

يتبلور لدى الإسرائيليين الاعتقاد أن الانسحاب من طرف واحد، أو إعطاء العرب سلطة سياسيّة، سوف يظهر ضعف إسرائيل من جهة، ويجعل الأعداء أقوى من جهة أخرى، ويمثّل تعاظم قوة حزب الله في لبنان مقابل الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠، والأمر نفسه مع حركة المقاومة الإسلامية - حماس في غزّة، في مقابل إحكام القبضة الأمنيّة والعسكرية في الضفة الغربيّة، دافعًا مهمًا في بلورة هذا الاعتقاد، وأكثر من ذلك، فإن الفارق الأساسي في هذه المسألة هو الاستيطان، حيث الفارق الذي يمكّن إحكام القبضة على الضفة الغربية مقابل «فلتانها» في المناطق الأخرى هو الاستيطان. في استطلاع أجراه معهد إسرائيل للديموقراطية في نيسان ٢٠٢٤، يرى ٢٢٪ من المستطلعين أنه يجب الاستيطان المباشر في غزة، بينما ٢٧,٢٪ يعتقدون أن السيطرة العسكرية المباشرة مجدية أكثر لاستعادة الأمن.[٢٩] في الحقيقة، لا فرق بين الأمرين. إن الحضور العسكري يتحوّل إلى بيئة اجتماعيّة، تتطلّب شروط الحياة البيولوجية، وتقيم المدارس والعيادات وغيرها، بينما يتطلّب الاستيطان فاعليّة عسكرية من أجل حمايته يزيد ذلك من حمل أعضائه أنفسهم للسلاح. ورغم صياغة أسئلة الاستطلاع على نحو موجّه، استمرت النسبة في التصاعد؛ في شهر أيار من هذا العام، اعترض ٤١٪ من المستطلعين اليهود على ادعاء وزير الدفاع بأن "حكومة عسكرية في غزة سوف تزهق الكثير من الدماء اليهودية، وبالتالي يجب على إسرائيل ألّا تحتل غزة".[٣٠] ويظهر استطلاع معهد سياسات الشعب اليهودي من شهر تموز الماضي، أنه مقابل تأييد الأغلبية (٥٧٪)، لمختلف الطروحات التي تفضي إلى السيطرة الإسرائيلية أمنيًا على قطاع غزة و/أو الإبقاء على حضور عسكري محدود مقابل التنازل عن السيطرة المدنية، يرى ٢٨٪ أن الاحتلال هو الحل الأمثل لليوم التالي.

من هذا المنظور، أي الدفع بالحرب إلى حدودها القصوى، يورد الصحافي بار أون من صحيفة "هآرتس" ما يلي: في الاستطلاعات، يبرز الجمهور الإسرائيلي مواقف متطرفة لناحية إدارة الحرب. في استطلاع من شهر آذار أعده بروفسور جلعاد هيرشبيرغ من قسم علم النفس في جامعة رايخمان، فإن ثلثي المستجوبين اليهود يعتقدون أن حكومة إسرائيل تتصرف على نحو

جباليا: ١٩ أوكتوبر ٢٠٢٤. (شينخوا)

"متساهل جدًا" في غزة. الإجابة على سؤال آخر من الاستطلاع نفسه صعبة الاستيعاب: المقولة "جيش إسرائيل يجب أن يحدّ من استخدام القوة حتى يحافظ على سلامة المختطفين" يؤيّدها ١٥٪ من المستطلعين، ويعترض عليها ٣٧٪".[٣١] وفي مجمل استطلاعات الرأي منذ بداية الحرب، بلغت النسبة الأعلى لتأييد انخراط إسرائيل في إعادة إعمار قطاع غزّة ١٣٪ من المستطلعين، وتحافظ نسب الاستهتار بالقانون الأخلاقي للحرب على ارتفاع بلغ ٦٨٪ في تموز الماضي.[٣٢] المفارقة في أن هذه القناعات ترتفع في ظل انخفاض قناعة الجمهور المستطلع بقدرة الجيش على حسم المعركة في غزة من ٩٢٪ في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢٣ إلى ٦٨٪ نهاية تموز الماضي، وتدنّي الاعتقاد بتحقيق كامل أهداف الحرب المعلنة إلى ١٣٪.[٣٣]

بالعودة إلى تأييد الطروحات المختلفة لليوم التالي للحرب، ومع التدقيق أكثر في الخلفية السياسية والاجتماعية للمستطلعين، فإن الفارق الجوهري بين جمهور اليمين واليسار الصهيوني، كما يظهر في الاستطلاعات، هو الاستيطان المباشر مقابل السيطرة العسكرية و/أو الأمنية، بينما تظهر التجربة التاريخية (على مستوى الاستيطان في الضفة الغربية على سبيل المثال) أن الحدود بين الأمرين تطمس مع مرور الوقت ويثّبت الاستيطان كأمر واقع، وأنه ثمّة تاريخ من التكتيكات العبرية المتّبعة، تدفع بما يمكن تسميته "تقادم الأمر الواقع" وتحوّل ما بدأ بالحضور العسكري إلى استيطان بشري، وبالعكس.

بتعبير مختلف، فإن طموح اليمين هو تعميم نموذج ما يسمّى بالمناطق "أ" في الضفة الغربية، على مجمل مناطق الضفة الغربية وقطاع غزة، بينما يرى اليسار أن نموذج المناطق "ب"، أي التخلي عن السلطة المدنية في مقابل الحفاظ على الإدارة الأمنيّة المرتبطة بحضور عسكري محدود هو ما يجب استنساخه في غزة، لكن ليس بإدارة مدنيّة فلسطينية، بل عبر إدارة دولية تشارك فيها "قوات دولية" و/أو "حلفاء إسرائيل"، والحقيقة أن هذا الموقف قد عبّر عنه بنيامين نتنياهو في خطابه الأخير في الكونغرس. في هذا

بالعودة إلى تأييد الطروحات المختلفة لليوم التالي للحرب، ومع التدقيق أكثر في الخلفية السياسية والاجتماعية للمستطلعين، فإن الفارق الجوهري بين جمهور اليمين واليسار الصهيوني، كما يظهر في الاستطلاعات، هو الاستيطان المباشر مقابل السيطرة العسكرية و/أو الأمنية.

السياق، تمثّل "القوات الدوليّة" أو "حلفاء إسرائيل" في إدارة القطاع مدنيًا، التي يتبنّاها جمهور اليسار والوسط في الاستطلاعات، صيغة بلاغيّة للدفع بتطبيق رغبة اليمين في إسرائيل، وترقيق للمصطلحات التي تعلن صراحةً نزع حق الفلسطينيين في إدارة حياتهم وحقّهم في تقرير المصير، عن أي «مسار تفاوضي»، أقصد، نفي مفهوم التفاوض عن المستقبل السياسي.

على الأرض، تسيطر إسرائيل حتى كتابة هذه السطور على ٢٦٪ من قطاع غزّة، ١٦٪ منه يسمّى منطقة عازلة تلاصق الحدود بين قطاع غزة وإسرائيل من داخل حدود الأول، أي تخضع للسيطرة الأمنيّة والعسكريّة الإسرائيلية. في الواقع، يشكّل هذا الشريط عمليّة محو للحدود بين إسرائيل والقطاع، أو للدقة يجعل حدود السيادة الإسرائيلية داخل جغرافيا قطاع غزّة بتفسيرات الضرورات الأمنيّة، تمامًا كما تفسّر هذه الضرورات انتشار الجيش على باقي المناطق المحتلة (في محور نيتساريم وتفسر "متلازمة محور صلاح-الدين (فيلادلفي) لدى بنيامين نتنياهو) التي يدعي جيش إسرائيل أنه يسيطر عليها مؤقتًا.[٢٤] لكن، يتحول "الحضور العسكري المؤقّت"، الحاجة الأمنية الملحة، إلى تموضع إستراتيجي، على نحو يتوافق وما يسمّيه إيال وايزمان "المؤقتيّة الدائمة"،[٢٥] والتي تبدأ بالحضور العسكري المبرر أمنيًا وتنتهي بالاستيطان. المؤقّت في هذا السياق معناه - حتى الوصول إلى تسوية سياسيّة، ما يعرف إسرائيليًا في هذه الحرب بـِ "اليوم التالي". بهذا الأسلوب، تشكل العمليّة السياسية، أو تأجيلها، أو العراقيل التي تمنع الوصول إليها، تبريرًا بلاغيًا لاستمرار الحضور العسكري الذي يفرض نفسه بالقوّة. يقول مسؤولون في الجيش إن هذه المحاور والغلاف هي "مسألة استراتيجيّة" من أجل استعادة الأمن في الجنوب، في حين بدأت مظاهر الحياة في المناطق المحتلة بالظهور، حيث شق الطرق، والأعمدة الكهربائية، وتشييد أدوات الإسكان للجنود، قد أنجز منذ آذار ٢٠٢٤. في المقابل، يذكر عاموس هرئيل من صحيفة "هآرتس"، والذي يكتب في غالبية مقالاته اليومية والأسبوعية أن المسار الذي تشقه إسرائيل في هذه الحرب بقيادة رئيس الوزراء بينامين نتنياهو، لدوافع أيديولوجية وسياسية على حد سواء، هو مسار حرب لا-نهائية أو حرب دائمة لا يبدو أنها تملك وجهة محددة؛ يذكر هرئيل حول ما يعرف إسرائيليًا بـِ "خطة الضباط" ما يلي:

في ما يتعلق بقطاع غزة، يُلاحظ مرة أخرى علو نبرة الحديث حول "خطة الضباط"، وهي فكرة قدّمها الضابط في جيش الاحتياط غيورا أيلند. أساسها دفع [أي تهجير] مئات آلاف الفلسطينيين الذين بقوا في شمال القطاع إلى جنوبه، إلى ما وراء محور نتساريم، ووقف تمرير الغذاء والماء لمن يصر على البقاء هناك. يعتقد أيلند أن هذا الأسلوب سوف يصعّد الضغط على قيادة حماس في جنوب القطاع، وفي الوقت نفسه من أجل تعزيز فاعليّة العمل ضد مسلحي التنظيم في الشمال. هو أيضًا يوصي الجيش بالسيطرة على توزيع المساعدات الإنسانية من يدي المؤسسات الدولية.

تتمتع هذه الخطة بتأييد متصاعد، وحتى متحمس، في المستوى السياسي وفي القيادة العسكرية في الجنوب. بين المؤيدين والذين يدفعون نحو تنفيذ الخطة أيضًا مستوطنون يرونها فاتحة وبوابة من أجل تجديد

لقد اندفعت الحرب الراهنة من الإرث الحربي الإسرائيلي الذي يقف على ثنائية مشتقة من أسلوب فَهم الضحية بوصفها قدرًا يهوديًا إذا لم يقم اليهود بقتل أعدائهم: إما أن نفتح حدود أوشفيتس أو أن نموت داخله.

الاستيطان في شمال القطاع، على عكس تصريحات سابقة من نتنياهو. أيضًا داخل الجيش يمكن تمييز ضباط ذوي أجندة مؤدلجة وعلاقات سياسية متشعبة يثابرون على تطبيق الخطة [...] إن استقواء هذه الأفكار من خلف الكواليس يتداخل ويتناسب مع استقواء تأثير الضباط الخلاصيين في المواقع المركزية داخل الفرق الفعالة في القطاع". (هرئيل، هآرتس ١/ ١٠/ ٢٠٢٤).

خاتمة

لقد اندفعت الحرب الراهنة من الإرث الحربي الإسرائيلي الذي يقف على ثنائية مشتقة من أسلوب فَهم الضحية بوصفها قدرًا يهوديًا إذا لم يقم اليهود بقتل أعدائهم: إما أن نفتح حدود أوشفيتس أو أن نموت داخله. في الحرب الراهنة، من البديهي القول إن المجتمع العبري لم يندفع إلى قناعة عقد السلام مع الفلسطينيين، لكن، من منظور هذه المقالة فإن الغريزة العدوانية، البنية العنيفة للمشروع الصهيوني، سمة الثأر في استحضار تاريخ الضحيّة وتجسيده في الراهن وملاقاته لنَمذَجَةٍ تاريخية جديدة لليهودي الحديث الذي يحافظ على جهوزيته القتالية باستمرار، في مقابل الاحتلال الخلاصي لفلسطين، بذات مقدار تعبيرها عن تقسيمات اليسار واليمين واليمين-المتدين في إسرائيل، فإنها تلتقي ضمن المنظور الحربي الراهن، تخلق مشتركات حقيقية وملموسة بين «المعسكرات السياسية»، إن هذه النمذجة التاريخية الجديدة والقناعة بثنائية حدود المعتقل، تعبر التقسيمات الأيديولوجية، وتموضع الآخر بوصفه شرًّا مطلقًا مقابل اليهود بوصفهم خيرًا مطلقًا، ويجب القضاء عليه؛ أي تؤطّر المجتمع الإسرائيلي بوصفه قبيلة يجمع أبناؤها على المنظور الحربي مسارًا تاريخيًا واستراتيجيًا، أداةً وحيدة للتفاهم مع الفلسطينيين. من هذا المنظور، يصعب تحديد نهاية للحرب الوجوديّة كما يُمَفهمها المجتمع العبري، بل إنها حرب مستمرة ويجب أن تكون كذلك، ربما بفارق بسيط هو استعادة الأسرى الإسرائيليين لدى المقاومة الفلسطينية. لقد عبّر عن هذا المنظور رئيس هيئة أركان جيش إسرائيل السابق أفيف كوخافي، متسائلًا "ما المانع في إتمام الصفقة والعودة إلى حرب سيوف حديدة ٢؟" ومضيفًا أن القضاء على المقاومة الإسلامية - حماس يتطلّب سنوات من القتال.[٣٦] بالتالي، يصعب أكثر إذا نظرنا إلى الحرب الراهنة من هذا المنظور، تحديد "يومٍ تالٍ" للحرب يعلَن عنه بواسطة خطّة واضحة أو بواسطة تاريخ محدد. يبدو أن التجانس مع المفاهيم، والوقائع الاحتلالية والإبادة التي تصنعها الحرب، يموضع أيامها ذاتها كأيام تالية. أقصد، أن ما يسمّى إسرائيليًا بـ "اليوم التالي" هو ما تفرضه إسرائيل على الأرض في أيام الحرب ذاتها كأمر واقع، وهو أيضًا، في المقابل، ما يواجهه الشعب الفلسطيني بصموده ومقاومته.

الهوامش

١ ينيف كوفوفيتش، "تحقيق الجيش: قوات كبيرة لم تدخل بئيري، المقاتلون المصابون أسعفوا قبل المواطنين؛ براك حيرم تصرف باحترافية"، هآرتس، ٢٠٢٤/٠٧/١١، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/١، في: https://bit.ly/3YucKnu

عاموس هرئيل، "تحقيق الجيش حول بئيري يكشف صلب التقصير العسكري، لكنه مجرد جزء من الصورة"، هآرتس، ٢٠٢٤/٠٧/١١، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/١، في: https://bit.ly/3YtVhvr

ليزا روزوفسكي، "في بئيري استقبلوا التحقيق بمشاعر مختلطة: الجيش يعترف أنه تركنا"، هآرتس، ٢٠٢٤/٠٧/١١، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠١، في: https://bit.ly/3SCJGq6

٢ إيتاي رون، "مستهترًا بالقانون وبالكنيست: هكذا يبدو إصلاح السلاح بالنسبة لبن غفير"، شكوف، ٢٠٢٤/٠٣/١٧، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠١، في: https://shakuf.co.il/49371

٣ هدار كانا، "أربع ساعات ونصف من وقتكم وبضعة مئات من الشواكل: هكذا يمكن الحصول على رخصة سلاح في إسرائيل"، ذي ماركر، ٢٠٢٤/١١/٢٢:
https://www.themarker.com/allnews/2023-11-22/ty-article/0000018b-e6b3-dffa-adef-e6b3e69b0000

٤ يعل ليطمونوفيتش وميرتي ليفي، "وحدات التأهّب-مسح ومراجعة"، المركز الإسرائيلي للديموقراطية، حزيران ٢٠٢٤.

٥ مصدر سابق.

٦ أيلان كفير، "فرقة غزة احتلت: ٧ أكتوبر ٢٠٢٣" (ريشون لتسيون: يديعوت أحرونوت وكتب حِمد، ٢٠٢٤). صـ ١١٧.

٧ كفير، ١٥٢-١٥٣.

٨ كفير، ١٥٨.

٩ من إعداد الكاتب، استنادًا إلى استطلاعات رأي مركز أبحاث الأمن القومي، نتائج استطلاعات رأي "سيوف حديدية" - تموز ٢٠٢٤، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠٢، في: https://www.inss.org.il/he/publication/july-2024/

١٠ المركز الإسرائيلي للديمقراطية، استطلاع رأي "سيوف حديدية" - آذار ٢٠٢٤، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨٠/٠٢، في: https://www.idi.org.il/articles/53470

١١ هشام نفاع، "الخطاب والرواية الإسرائيليان لأحداث ٧ أكتوبر"، مدار-المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، مجلة قضايا، عدد ٩٣. ٢٠٢٤. صـ ٧٩.

١٢ توم سيغف، "المليون السابع: الإسرائيليون والمحرقة" (القدس: كتر، ١٩٩١) ٧٢.

١٣ سيغف، ٣٦.

١٤ سيغف، ٣٧.

١٥ سيغف، ٤٤.

١٦ سيغف، ٢١.

١٧ سيغف، ٢٩.

١٨ سيغف، ١٠٨.

١٩ سيغف، ١٦١.

٢٠ سيغف، ١٤٢، ١٥٢.

٢١ سيغف، ٣١٠-٣١١.

٢٢ سيغف، ٣١٤.

٢٣ سيغف، ٣١١.

٢٤ مصدر سابق.

٢٥ سيغف، ٣٧٤.

٢٦ سيغف، ٣٦٩.

٢٧ مصدر سابق.

٢٨ مواقف الجمهور حول اليوم التالي للحرب على غزة - تشرين الثاني ٢٠٢٣، القناة ١٢، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠٥، في: https://www.mako.co.il/news-politics/2023_q4/Article-9f47fed9563eb81027.htm، انظر أيضًا: https://bit.ly/3YFW9wS\

٢٩ المعهد الإسرائيلي للديمقراطية، العينات المستطلعة - استطلاع سيوف حديدة، شهر نيسان ٢٠٢٤، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠٤، في: https://www.idi.org.il/media/23634/special-survey-iron-swords-war-data-21apr2024.pdf

٣٠ معهد دراسات الأمن القومي، نتائج استطلاع "سيوف حديدية"- شهر أيار ٢٠٢٤، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠٤، في: https://www.inss.org.il/he/publication/may2024/

٣١ داني بار أون، "ما الذي حدث لحركة الاحتجاج؟"، هآرتس، ٢٠٢٤/٠٧/١٣، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠٥، في: https://www.haaretz.co.il/magazine/2024-06-13/ty-article-magazine/.highlight/00000190-0677-d667-abf0-66fffad40000

٣٢ مصدر سابق.

٣٣ مصدر سابق.

٣٤ يردن ميخائيل وآفي شيرف، "وقد عادوا أولاد: ما بدأ كرد فعل على هجوم حماس تحوّل إلى منبر يستخدمه اليمين من أجل تهويد قطاع غزة"، هآرتس، ٢٠٢٤/٠٧/٤، شوهد في ٢٠٢٤/٠٨/٠٥، في: https://bit.ly/4cfKg44

٣٥ إيال وايزمان، "أرض جوفاء"، ترجمة باسل وطفة. (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر وَمدارات للأبحاث والنشر، ٢٠١٧) صـ ١٦١- ١٦٣.

٣٦ هآرتس، "كوخافي: لا طريقة لاستعادة المختطفين دون وقف الحرب"، ٢٠٢٤/٠٥/٠٨، شوهد في، ٢٠٢٤/٠٨/٠٥، في: https://www.haaretz.co.il/news/politics/2024-05-08/ty-article/0000018f-593a-d348-a7bf-ffbbcdcd0000